

رَأْيَاتُنَا
كِرِيْسِيْتِي

عِيْنَةٌ مِّنَ الرِّوَايَةِ
(لِلتَّصْفِحِ وَالْإِطْلَاعِ)

السَّرُّوُ الْحَزِيْنِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أغاثا كريستي

السُّرُوحُ الحَزِين

طُبعت للمرة الأولى باللغة الإنكليزية عام ١٩٤٠

ترجمة: نبيل عبد القادر البرادعي

تحرير: رمزي رامز حسون



الأجبال
للترجمة
والنشر

AJYAL Publishers

هذه الترجمة تضم النصّ الكامل لرواية أغاثا كريستي
المنشورة أول مرة عام ١٩٤٠ بعنوان

Sad Cypress

Copyright Agatha Christie Mallowan 1940

حقوق الطبع محفوظة للناشر:
الأجيال للترجمة والنشر والتوزيع

يُمنع نقل أو تخزين أو إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب
بأي شكل أو بأية وسيلة: تصويرية أو تسجيلية أو إلكترونية
أو غير ذلك إلا بإذن خطي مسبق من الناشر

Arabic edition published by AJYAL Publishers
e-mail: books@al-ajyal.com

الطبعة الثالثة

٢٠٢٠

تعالَ وأسرِعَ أيها الموت ، تعالَ وأسرِعَ ،
ولفني بأغصان السَّروِ الحزين .
جهَّزوا كَفني الأبيضَ ورصَّعوه بأعواد الطُّقُّسوس ،
واذهبي بعيداً أيتها الأنفاس ، بعيداً اذهبي .
إنه حظي من الموت ، ولن يشاركني فيه أحد .

وليم شيكسبير

استهلال

- إينور كاترين كارليس، أنت متهمة بقتل ماري جيرارد في السابع والعشرين من تموز الماضي. هل أنت مذنبه أم غير مذنبه؟

وقفت إينور كارليس منتصبه القامة تماماً مرفوعة الرأس. كان رأسها مهيباً وشعرها أسود وتقاطع عظام وجهها حادة واضحة، أما عيناها فكانتا عميقتي الزرقة مليئتتين بالحياة.

ساد صمت طويل، صمت ثقيل ملحوظ تماماً. وشعر السير إدوين بولمر وكيل الدفاع ببعض الهلع، وفكر مع نفسه قائلاً: يا إلهي، سوف تقول إنها مذنبه! لقد فقدت أعصابها.

انفجرت شفتا إينور كارليس وقالت: غير مذنبه.

ارتخى وكيل الدفاع في مقعده، ومرّر منديلاً على جبينه مدركاً أن القضية كانت على حافة الهاوية.

كان السير صاموئيل أتنبيري واقفاً يلخص القضية أمام المحكمة: السادة أعضاء هيئة المحلفين، في الساعة الثالثة والنصف من بعد

ظهر السابع والعشرين من تموز (يوليو) ماتت ماري جيرارد في منزل «هنتزبيرري» في ميدنزفورد...

ومضى صوته جهورياً عذباً على الأسماع، مهدهداً إلبينور حتى كاد يوصلها إلى مرحلة من فقدان الشعور. ومن سرده البسيط الموجز لم تصل إلى عقلها الواعي سوى عبارة عَرَضِيَّة من هنا وأخرى من هناك: ... يجعل القضية قضية بسيطة وواضحة إلى أبعد الحدود... إن من واجب المحكمة إثبات توفر الدافع والفرصة... لا يوجد لأحد - كما هو واضح - أي دافع لقتل تلك الفتاة المسكينة باستثناء المتهم... فتاة شابة ذات شخصية جميلة يحبها الجميع، ومن شأن المرء أن يقول إنها لا تملك عدواً واحداً في هذا العالم...

ماري، ماري جيرارد! كم يبدو ذلك كله بعيداً الآن!

- ... ولتنتبهوا بشكل خاص إلى الاعتبارين التاليين: ما هي الفرص والوسائل التي توفرت للمتهمة لدس السم؟ وما هو الدافع الذي جعلها تفعل ذلك؟ من واجبي أن أستدعي أمامكم شهوداً يمكنهم مساعدتكم في الوصول إلى نتيجة صحيحة بشأن هذه المسائل. وفيما يخص تسميم ماري جيرارد فسوف أسعى لكي أريكم أن أحداً لم تتوفر له الفرصة لارتكاب هذه الجريمة باستثناء المتهم...

شعرت إلبينور أنها حبيسة وسط ضباب كثيف، وجاءتها من خلال الضباب كلمات منفصلة عائمة: الشطائر (السندويتشات)، صلصة السمك، البيت فارغ... راحت الكلمات تطعن الستار السميك من الأفكار التي تحيط بإلبينور وكأنها وخزات دبائس تنفذ عبر ستار ثقيل خائق. محكمة، ووجوه، صفوف و صفوف من الوجوه! وجه

واحد محدّد خُيِّلَ إليها أنه يراقبها بتمعّن، وجه ذو شاربين سوداوين
ضخمين وعينين ذكيتين.

كان هيركيول بوارو يراقبها ورأسه مائل إلى الجانب وعيناها
تأملان، وفكّرت قائلة لنفسها: إنه يحاول أن يفهم لماذا فعلتها. إنه
يحاول أن يدخل داخل رأسي ليرى بماذا فكرت وبماذا شعرت...

بماذا شعرت؟ إنه انقطاعٌ وجيز للذكرى، إحساسٌ بسيط
بالصدمة... وجه رودى، وجهه العزيز بأنفه الطويل وفمه الحساس.
رودى، دائماً رودى! دائماً، من بداية ما تسعفها الذاكرة، منذ تلك
الأيام في «هنتزيري» بين أشجار العليق، وفي أراضي الصيد، وعند
الجدول. رودى، رودى، رودى!

وجوه أخرى... الممرضة أوبرايان بفمها المفتوح قليلاً ووجهها
النضر المنمّش وقد مال إلى الأمام. والممرضة هوبكنز التي تبدو
راضية بنفسها، راضية وعنيدة. ووجه بيتر لورد، بيتر لورد اللطيف
جداً، العاقل جداً، المُريح جداً! ولكنه يبدو الآن... كيف يبدو؟
ضائعاً؟ نعم، ضائع! إنه يهتم، يهتم لهذا كله بشكل فظيع، بينما
هي نفسها -صاحبة الشأن- لا تهتم إطلاقاً!

ها هي الآن هادئة وباردة تماماً، تقف خلف القضبان في
المحكمة متّهمة بجريمة قتل.

تململ في داخلها شيء ما، وخفّت ثنايا الستارات التي تلفّ
عقلها، أصبحت مجرد أشباح. في المحكمة؟ الناس... أناس يميلون
بأجسامهم إلى الأمام وقد انفرجت شفاههم واتقدت أعينهم لهفّةً،
يحدّقون إليها باستمتاع فظيع، استمتع بمآسي الآخرين، يُصغون

بشيء من اللذة البطيئة القاسية إلى ما يقوله عنها ذلك الرجل الطويل :
إن من السهل تماماً متابعة الحقائق في هذه القضية، وهي حقائق
منسجمة بعضها مع بعض ، وسوف أضعها بين أيديكم بشكل بسيط
تماماً. منذ نقطة البداية...

فكرت إينور: البداية... البداية؟ في ذلك اليوم الذي وصلت
فيه تلك الرسالة الفظيعة المَغفلة من التوقيع. تلك كانت بداية القصة!

* * *

الجزء الأول

الفصل الأول

-١-

وقفت إينور كارليس تنظر إلى الرسالة المفتوحة بين يديها. لم تكن قد استلمت مثل هذه الرسائل من قبل، وهي رسائل تثير في المرء إحساساً كريهاً. كانت مكتوبة بخط سيئ وتهجئة سيئة وعلى ورق وردي رخيص. وقد جاء فيها:

هذه الرسالة لتحذيرك. لن أسمي أسماء، ولكن أحدهن تتدلل لكسب ودّ عمّتك، وإن لم تكوني حريصة فسوف تُحرّمين من كل شيء. إن الفتيات ماكرات جداً، والنساء العجائز رقيقات عندما تتدلل لهن الفتيات الصغيرات وتتملّقنهن. أرى أن تأتي وتشاهدي بنفسك ما يجري، فليس من الحق أن تُحرّمي أنت والسيد الشاب مما هو حقهما. إنها ماكرة جداً، والسيدة العجوز قد تموت في أي لحظة. فاعل خير

كانت إينور ما تزال تنظر إلى هذه الرسالة وقد قطّبت حاجبيها المنمّقين تقززاً عندما فُتح الباب وأعلنت الخادمة قائلة: "السيد

ويلمان". ودخل رودى.

رودى! كعادتها كلما رأت رودى، أحست إينور بشعور خفيف من الدوار، بوخزة سرور مفاجئ، بشعور بأن من واجبها أن تكون واقعية غير عاطفية؛ ذلك أنه كان واضحاً جداً أن رودى -رغم حبه لها- لا يُحسّ تجاهها بمثل ما تحس هي تجاهه. إن أول رؤية له قد أثرت فيها تأثيراً قوياً، لوت قلبها واعتصرته حتى كاد يؤلمها. إنه لمن السخف أن يستطيع رجل، رجل عادى، بل عادى تماماً، أن يفعل ذلك بامرأة! من السخف أن يكون من شأن نظرتة وحدها أن تجعل العالم يدور، وأن يكون من شأن صوتة وحده أن يجعل المرء يرغب قليلاً بالبكاء! من المؤكد أن الحب ينبغى أن يكون عاطفة سارة مفرحة، لا عاطفة تؤلم لشدة تركيزها.

كان ثمة شيء واضح واحد: ينبغى عليها أن تكون حريصة جداً على البقاء طبيعية تلقائية غير مهتمة ولا متلهفة، فالرجال لا يحبون الولة والتعلق الشديد، ومن المؤكد أن رودى لا يحب ذلك.

قالت بأسلوب عرّضى: مرحباً رودى.

أجابها: مرحباً يا حبيبتي. تبدين في وضع مأساوي، أهى فاتورة وصلتك؟

هزت إينور رأسها بالنفي فقال رودى: ظننتها فاتورة، فهذا منتصف الصيف كما تعلمين، حيث ترقص الجنيات وتأتي الفواتير المتأخرة تباعاً.

- إنه أمر فظيع، إنها رسالة من مجهول.

ارتفع حاجبا رودي وتصلب وتغير وجهه المتلهف الحساس ،
ثم قال هاتفاً بحدة واشمئزاز: حقاً؟

قالت إينور ثانية: إنه أمر فظيع.

ثم خطت خطوة نحو مكتبها قائلة: من الأفضل أن أمزّقها.

وقد كان من شأنها أن تفعل ذلك، بل لقد كادت تفعله. كان من شأنها أن ترميها بعيداً ولا تفكر بها بعد ذلك، وما كان رودي ليقفها عن القيام بذلك، فقد كان إحساسه بالاشمئزاز أكبر من فضوله بكثير. ولكن إينور قررت بوحى اللحظة خلاف ذلك. قالت: ولكن ربما كان من الأفضل أن تقرأها قبل ذلك، وبعدها سنحرقها. إنها بشأن العمة لاورا.

ارتفع حاجبا رودي دهشة وقال: العمة لاورا؟

أخذ الرسالة فقرأها، وعبس تقرّزاً ثم أعادها إليها وقال: نعم، ينبغي حرقها بالتأكيد. يا لغرابة الناس!

- أتحسبه واحداً من الخدم؟

- ربما.

ثم تردد لحظة وقال: إنني لأتساءل من... من هي تلك التي ذكرتها الرسالة؟

قالت إينور متأملة: لا بد أنها ماري جيرارد كما أظن.

قطب رودي جبينه في محاولة للتذكر وقال: ماري جيرارد؟
من هي؟

- ابنة الزوجين اللذين يسكنان البيت الصغير المخصص للبواب عند مدخل العزبة. ألا تذكرها عندما كانت طفلة؟ لقد كانت العمه لاورا مغرمة دوماً بهذه الفتاة وكانت مهتمة بها، فقد دفعت لها نفقات الدراسة وكثيراً من النفقات الإضافية الأخرى، دروس في البيانو وفي اللغة الفرنسية وغير ذلك.

- آه، نعم، تذكرتها الآن. تلك الطفلة النحيلة التي لا يرى المرء منها إلا عظاماً، مع لُمة من الشعر الأشقر.

أومات إينور برأسها موافقة وقالت: نعم، وقد اعتدنا أن نخرجها من بيتها ونلعب معها عندما كنا كلنا صغاراً. ربما لم ترها منذ أيام تلك العطل الصيفية عندما كان والداي يسافران، فأنت لم تتردد على «هنتربيري» بقدر ما ترددت أنا بالطبع. وقد كانت في ألمانيا مؤخراً تعمل لدى عائلة بهدف تعلم اللغة.

- كيف أصبحت الآن؟

- لقد غدت جميلة تماماً وتتمتع بأداب السلوك، وبسبب تعليمها لا يمكن للمرء أن يحسبها ابنة العجوز جيرارد على الإطلاق.

- لقد اكتسبت مظاهر النبيلات، أليس كذلك؟

- بلى، ونتيجة لذلك فإنها لم تعد تنسجم مع بيت البواب الصغير كما أظن، فقد ماتت السيدة جيرارد منذ بضع سنين، وماري لا تنسجم مع والدها الذي يسخر من تعليمها و«أساليبها الراقية».

قال رودى بغضب: إن الناس لا يعرفون أبداً مقدار الأذى الذي قد يلحقونه حينما «يعلمون» شخصاً من مثل هذه البيئة، إذ غالباً ما

يكون هذا الأمر قسوة لا لطفاً!

- أحسب أنها تتردد على المنزل كثيراً، فهي تقرأ للعمّة لاورا منذ أن تعرضت لتلك السكتة الدماغية.

- ولماذا لا تقرأ لها الممرضة؟

- لأن للممرضة أوبرايان لكنة لا يمكن لأحد أن يطيقها، فلا عجب أن تفضّل العمّة لاورا قراءة ماري.

ذرع رودى الغرفة جيئةً وذهاباً بعصبية وسرعة للحظات ثم قال:
أتعلمين يا إينور؟ أظن أن علينا الذهاب إلى هناك.

قالت إينور بقليل من التقزز: بسبب هذه؟

- لا، لا، أبداً. ولكن... تبا، على المرء أن يكون صادقاً.
نعم، فرغم كل ما توحى به هذه الرسالة من شر إلا أنها قد تحتوي
على بعض الحقيقة. أعني أن العجوز مريضة تماماً...

- نعم يا رودى.

نظر إليها بابتسامته الساحرة معترفاً بأن لا عصمة للطبيعة
البشرية، ثم قال: والمال يهّم بالفعل، يهمنى كلينا يا إينور.

اعترفت بذلك بسرعة قائلة: آه، إنه يهّم.

قال جاداً: المسألة ليست أنني مرتزق، ولكن العمّة لاورا
نفسها قالت مراراً وتكراراً إننا قريباها الوحيدان. فأنت ابنة أخيها وأنا
ابن أخي زوجها، وقد أوحى لنا دائماً ما يُفهم منه أن كل ما تملكه

سيؤول عند وفاتها لواحد منا، والأغلب لكلينا. وهي... وهي ثروة عظيمة يا إينور.

قالت إينور متأملة: نعم، لا بد أنها ثروة عظيمة.

- إن المحافظة على منزل هنتزيري ليست بالأمر الهين.

سكت قليلاً ثم قال: أحسب أن العم هنري كان غنياً عندما التقى عمك لاورا، ولكنها كانت غنية أيضاً، فقد ورثت هي وأبوك ثروة كبيرة. مؤسف أن أباك دخل في مضاربات خسر فيها معظم ثروته.

تنهدت إينور وقالت: لم يكن لوالدي المسكين أبداً عقل تجاري ناجح.

- نعم، لقد كان للعم لاورا عقل تجاري أفضل من عقله بكثير. لقد تزوجت عمي هنري واشترى هنتزيري، وقد أخبرتني قبل فترة بأنها كانت محظوظة جداً في استثماراتها على الدوام، فلم تفشل في أي منها.

- والعم هنري ترك لها كل ما يملك عند وفاته، أليس كذلك؟

أوماً رودوي وقال: بلى، كانت وفاته المبكرة أمراً مأساوياً. ومع ذلك لم تتزوج غيره، فهي من النوع المخلص. وقد كانت دوماً طيبة جداً معنا؛ لقد عاملتني وكأنني ابن أخيها هي لا ابن أخي زوجها، وعندما كنت أقع في ورطة كانت تسارع إلى إخراجي منها، ولكنني لم أقع في الكثير من تلك الورطات لحسن الحظ!

قالت إينور بامتنان: لقد كانت سخية جداً معي أنا أيضاً.

أوماً رودى موافقاً وقال: إن العممة لاورا امرأة كريمة، ولكن ربما كنا يا إلبنور نعبش -دون إدراك منا- بشكل باذخ مسرف جداً إذا ما أخذنا بعين الاعتبار إمكانياتنا الحقيقية.

قالت بحزن: أظننا نسرف بالفعل. كل شيء يكلف الكثير؛ الملابس، والتجميل، وأمور سخيفة أخرى كالسينما والحفلات، وحتى أسطوانات الغرامافون!

- يا حبيبتى، إنك حقاً ممن يسمونهم ذوي الأيدي الناعمة، ممن لا يتعبون ولا يشقون، أليس كذلك؟

- أظن أن عليّ أن أعمل وأشقى يا رودى؟

هز رأسه بالنفي وقال: إننى أحبك كما أنت؛ رقيقة مترفة فى برجك العاجى. إن من شأنى أن أكره تحولك إلى فتاة جدية جداً، ولكننى أقول فقط إنك -لولا العممة لاورا- ربما كنتِ تعملين فى وظيفة مملة ما.

ثم أكمل قائلاً: والأمر نفسه ينطبق عليّ أنا أيضاً. إن لى عملاً نوعاً ما، فالعمل فى شركة لوىس وهىوم لىس شاقاً جداً. إنه يناسبنى، إذ أحتفظ باحترامى لنفسى لأن لىدى عملاً، ولكننى (وأرجو أن تنتبهى لذلك) لا أقلق على المستقبل بسبب ما أتوقعه من إرث من العممة لاورا.

- يبدو من كلامك وكأنك طفلى كشجرة لبلاب بشرية.

- هراء! لقد أوحى إلينا بأننا سنرث مالا ذات يوم، هذا كل ما فى الأمر. ومن الطبعى أن تؤثر هذه الحقيقة فى سلوكنا.

قالت إينور وهي تتأمل: لم يحدث أن أخبرتنا العمه لاورا بشكل محدد كيف قسمت أموالها بالضبط، أليس كذلك؟

- هذا لا يهم، فالأغلب أن تكون قد قسمتها بيننا. ولكن إن لم يكن الأمر كذلك... إن كانت قد تركت كل الثروة أو معظمها لك أنت باعتبارك من لحمها ودمها، فعندها يا حبيبتي سأنتقاسمها معك لأنني سأتزوجك، وإذا كانت العجوز قد رأت أن تذهب غالبية الثروة لي أنا باعتباري الممثل الذكر لعائلة ويلمان فلا بأس بذلك أيضاً، لأنك ستزوجين بي.

ثم ابتسم لها بمحبة وأضاف: من حسن الحظ أن كلاً منا قد أحب الآخر. أنت تحبينني حقاً، أليس كذلك يا إينور؟
- بلى.

قالتها ببرود وبشكل يكاد يكون رسمياً مقتضباً، فقال رودى يقلد أسلوبها: "نعم"! إنك رائعة يا إينور بهذا السميت الذي تُبدينه... البُعد والترفع الذي لا يُطال، أشبه بأميرة. أظن أن هذه الصفة فيك هي التي جعلتني أحبك.

حبست إينور أنفاسها وقالت: أحقاً؟

قطب جبينه وقال: نعم. إن بعض النساء شديداً الـ... لا أدري، شديداً التعلق بالمرء والسعي إلى تملكه، يحبين إلى حدّ تسيل فيه عواطفهن لتملاً المكان! إنني أكره ذلك، أما معك فلا أعرف، لا أستطيع الجزم أبداً. يمكنك في أية لحظة أن تستديري بطريقتك المحايدة الباردة تلك وتقول لي إنك قد غيرت رأيك...

هكذا بكل برود، دون أن يرفّ لك جفن! إنك مخلوقة فاتنة يا إينور، أنت أشبه بعمل فني شديد الكمال. أرى أن زواجنا سيكون زواجاً مثالياً، فنحن متحابان بما فيه الكفاية ودون إفراط، ونحن صديقان حميمان، ولنا الكثير من الأذواق المشتركة، وكل منا يعرف الآخر معرفة عميقة تماماً. إن لدينا كل مزايا القرابة دون مساوئ ومضارّ قرابة الدم. ولن أملّ منك أبداً لأنك مخلوقة يصعب جداً الاطمئنان إلى ولائها. أما أنا فإنني رجل عادي جداً ويمكن أن تملّيني...

هزت إينور رأسها نافية وقالت: لن أمّلك يا رودى، أبداً.

- شكراً يا حبيبتي! أظن أن العمة لاورا تعرف أحوالنا تمام المعرفة، رغم أننا لم نذهب إليها هناك منذ أن رتبنا الأمر أخيراً، وهذا ما يُعطينا عذراً للذهاب لزيارتها، أليس كذلك؟

- بلى. كنت أفكر قبل أيام...

أكمل عنها جملتها: بأننا لم نعد نذهب إلى هناك كثيراً كما كنا نفعل من قبل. لقد فكرتُ بذلك أيضاً. عندما تعرّضتُ للسكتة أول مرة كنا نذهب كل أسبوعين تقريباً، والآن كاد يمر شهران منذ آخر زيارة لنا.

- كنا سنذهب لو أنها طلبتنا... على الفور.

- نعم، بالطبع. ونحن نعرف أنها تحب الممرضة أوبرايان وتجد منها كل عناية، ومع ذلك فربما كنا مهمّلين قليلاً. وأنا الآن لا أتحدث من وجهة النظر المالية بل من الناحية الإنسانية المجردة.

أومأت إينور برأسها قائلة: أعرف.

- وهكذا فإن تلك الرسالة القذرة قد جاء منها شيء جيد في نهاية الأمر! سنذهب لحماية مصالحنا ولأننا مغرمان بالعجوز العزيرة.

أشعل عود ثقاب وأحرق الرسالة التي أخذها من يد إينور قائلاً: إنني أتساءل عمّن كتبها؟ وهذا لا يعني أن الأمر مهم. إنه واحد «من جماعتنا» كما كنا نقول ونحن صغار، وربما كان في عمله هذا قد أفادنا أيضاً، فقد ذهبت والدة جيم بارتينغتن إلى الريفيرا لتعيش هناك، وهناك تعرفت بطبيب إيطالي شاب ووسيم ليقوم على رعايتها فتعلقت به بجنون وتركت له كل قرش تملكه. وقد حاول جيم وأخواته الطعن بالوصية ولكنهم لم ينجحوا.

- إن العمدة لاورا تحب الطبيب الجديد الذي حل محل الدكتور رانسوم، ولكن ليس لهذه الدرجة! وعلى أي حال فإن تلك الرسالة الفظيعة ذكرت فتاة؛ لا بد أنها ماري.

قال رودي: سنذهب هناك ونرى بأنفسنا.

-٢-

خرجت الممرضة أوبرايان من غرفة نوم السيدة ويلمان مسرعة ودخلت الحمام، وقالت وهي تلتفت: سأضع الإبريق على النار فقط. أنا واثقة أنك سترتاحين لشرب فنجان من الشاي قبل ذهابك يا زميلتي.

قالت الممرضة هوبكنز بارتياح: يمكنني دائماً الارتياح لشرب فنجان من الشاي يا عزيزتي، إذ دائماً ما أقول إن شيئاً لا يضاهي فنجان شاي جيداً، من الشاي الثقيل.

قالت الممرضة أوبرايان وهي تملأ الإبريق وتشعل تحته النار: لديّ هنا كل شيء في هذه الخزانة، إبريق الشاي والفناجين والسكر. وإيدنا تُحضر لي الحليب الطازج مرتين يومياً. لا حاجة لأن أقرع الأجراس على الدوام. هذا موقد غازي جيد يغلي الماء في ثوان معدودة.

كانت الممرضة أوبرايان امرأة طويلة محمّرة الشعر في الثلاثين من عمرها، ذات أسنان بيضاء ناصعة ووجه منمّش وابتسامة محببة. وقد جعلها مرحها وحيويتها مفضلة لدى مرضاها. أما الممرضة هوبكنز، ممرضة المقاطعة التي تأتي كل صباح لترتيب السرير والإشراف على نظافة السيدة العجوز الثقيلة، فقد كانت امرأة في منتصف عمرها بسيطة المظهر يوحي شكلها بالكفاءة والرشاقة.

قالت باستحسان: كل شيء جيد في هذا البيت.

أومأت صاحبته وقالت: نعم. بعض سماته قديمة، فليست فيه مثلاً تدفئة مركزية، ولكن فيه الكثير من المواقد، والخدمات متعاونات جداً، والسيدة بيثوب تعتنني بهن جيداً.

قالت الممرضة هوبكنز: أنا لا أطيق صبراً على فتيات اليوم، فغالبيتهن لا يعرفن ما يُردن ولا يمكنهن إنجاز عمل مُتقن.

- إن ماري جيرارد فتاة لطيفة. لا أدري ما الذي كانت السيدة ويلمان ستفعله دونها. هل رأيت كيف سألت عنها الآن؟ إنها مخلوقة لطيفة ولها أسلوب في التعامل مع السيدة العجوز.

قالت الممرضة هوبكنز: كم أنا حزينة على ماري، فأبوها يفعل

كل ما في وسعه لإغاضتها.

- ليس في رأس ذلك العجوز العصبيّ كلمة مهذبة واحدة. ها قد صقّر الإبريق؛ سأحضر الشاي.

صنع الشاي وضّبّ حاراً ثقيلاً، وجلست الممرضتان ترتشفان منه في غرفة الممرضة أوبرايان المجاورة لغرفة نوم السيدة ويلمان.

قالت الممرضة أوبرايان: سيأتي السيد ويلمان والأنسة كارليس إلى هنا. لقد وصلت منهما برقية صباح اليوم.

- هذا هو السبب إذن؟ لاحظت أن العجوز بدت منفعة لشيء ما. لقد مضى وقت طويل منذ قدومهما في المرة الأخيرة، أليس كذلك؟

- مضى نحو شهرين أو أكثر. يا للسيد ويلمان من رجل لطيف! ولكنه يبدو متكبراً.

- أما هي فقد رأيت صورتها قبل أيام في إحدى المجلات مع صديقة لها في نيوماركت.

- إنها مشهورة في الأوساط الاجتماعية، أليس كذلك؟ وهي ترتدي دوماً ملابس رائعة. أتظنّينها جميلة حقاً؟

قالت الممرضة هوبكنز: من الصعب الجزم بحقيقة أشكال هؤلاء الفتيات إذا ما استبعدت المساحيق الكثيفة عن وجوههن، ولكن الذي أراه أنها ليست بجمال ماري جيرارد.

زمت الممرضة أوبرايان شفّتها وأمالت رأسها إلى الجانب

وقالت: ربما كنتِ على حق، ولكن ماري لا تملك الأسلوب.

قالت الممرضة هوبكنز بأسلوب وعظي: من شأن الريش الجميل أن يصنع طائراً جميلاً.

- هل لك في كوب آخر من الشاي؟

- شكراً لك، لا مانع.

تقاربت المرأتان وهما منكبّتان على كوبيهما، ثم قالت الممرضة أوبرايان: وقع أمر غريب الليلة الماضية، فقد دخلتُ في الساعة الثانية ليلاً لأتأكد من راحة العجوز العزيزة كما أفعل دائماً فوجدتها ممتدة على السرير، ولا بد أنها كانت تحلم، لأنها قالت بمجرد دخولي الغرفة: "الصورة، يجب أن أرى الصورة". فقلتُ لها: "بالطبع يا سيده ويلمان، ولكن أليس من الأفضل الانتظار حتى الصباح؟"، فقالت: "لا، بل أريد رؤيتها الآن". وهكذا قلت: "حسناً، أين هي الصورة؟ أتعنين صورة السيد روديريك؟"، فقالت: "روديريك؟ لا، بل لويس". ثم بدأت تجاهد للنهوض، فاقتربتُ لمساعدتها، فأخرجت مفاتيحها من العلبة الصغيرة قرب سريرها وطلبت مني فتح الدرج الثاني في خزانة الأدراج، وهناك وجدتُ فعلاً صورة كبيرة ذات إطار فضي. كانت لرجل شديد الوسامة، وقد كُتِب في زاوية الصورة «لويس»، وهو تقليد قديم طبعاً. لا بد أنها صُوِّرت منذ سنين طويلة. أخذتُ لها الصورة فأمسكت بها وحدّقت إليها لفترة طويلة، واكتفت بأن تمتمت: "لويس، لويس... ثم تنهدت وأعادت لي الصورة لأعيدها حيث كانت. وهل تصديقين أنني -عندما التفتُ إليها ثانية - وجدتُها قد نامت بهدوء كطفل صغير.

قالت الممرضة هوبكنز: أتظنينه كان زوجها؟

- لا، لأنني سألت السيدة بيشوب صباح اليوم بشكل عَرَضي عن الاسم الأول للسيد ويلمان الراحل فقالت إنه هنري!

تبادلت المرأتان النظرات. كان للممرضة هوبكنز أنف طويل، وقد ارتعش طرفه قليلاً بانفعال، ثم قالت متأملة: لويس، لويس؟ عجباً! مَنْ هو؟ لا أذكر أي اسم كهذا في هذه المنطقة.

ذَكَرَتْهَا صاحبها قائلة: من شأن ذلك أن يكون منذ سنوات طويلة يا عزيزتي.

- نعم، وأنا بالطبع لم يمضِ على وجودي هنا غير سنتين. إني لأتساءل...

قالت الممرضة أوبرايان: كان رجلاً وسيماً جداً، بدا وكأنه ضابط في سلاح الفرسان.

رشفَت الممرضة هوبكنز من كوبها وقالت: هذا مثير جداً.

قالت الممرضة أوبرايان بأسلوب رومَنسي: ربما كانا في صغرهما حبيبين وفرَّقَ بينهما أبُّ قاسٍ؟

تنهدت الممرضة هوبكنز بعمق وقالت: ربما قُتِل في الحرب.

-٣-

عندما غادرت الممرضة هوبكنز البيت أخيراً -وقد ملأها سعادةً ما شربته من شاي وما ضربت أخماسه بأسداسه من تأملات

رومنسية- ركضت ماري جيرارد خارجة من الباب لتلحق بها قائلة:
آه، هل لي أن أمشي معك إلى القرية؟

- بالطبع يا عزيزتي ماري.

قالت ماري جيرارد لاهثة: يجب أن أتحدث معك؛ إنني قلقة
جداً بشأن كل شيء.

نظرت إليها المرأة التي تفوقها عمراً بلطف.

كانت ماري جيرارد فتاة جميلة في الحادية والعشرين من عمرها
ذات شكل أقرب إلى الحلم منه إلى الحقيقة، كأنها وردة برية: عنق
دقيق طويل، وشعر ذهبي يحيط برأسها الجميل على شكل خصلات
متموجة تموجاً طبيعياً، وعينان برّاقتان عميقتا الزرقة.

قالت الممرضة هوبكنز: ما المشكلة؟

- المشكلة أن الزمن يمرّ ويمرّ وأنا لا أعمل شيئاً.

قالت الممرضة هوبكنز ببرود: هناك مُتسع من الوقت لذلك.

- لا، والأمر يبعث على القلق الشديد. لقد كانت السيدة
ويلمان لطيفة جداً، فقد دفعت لي كل تلك التكاليف الباهظة
للدراسة، وأشعر الآن فعلاً أن عليّ أن أبدأ بكسب عيشي. ينبغي أن
أتدرب على مهنة ما.

أومأت الممرضة هوبكنز برأسها تعاطفاً، ومضت ماري قائلة:
إن لم أفعل ذلك فسيكون الأمر مضيقاً لكل شيء. لقد حاولت أن...
أن أشرح ما أشعر به للسيدة ويلمان، ولكن الأمر صعب. لا يبدو أنها

تفهمني، فهي لا تفتأ تقول إن هناك الكثير من الوقت.

- تذكّري أنها امرأة مريضة.

احمرّ وجه ماري ندماً وقالت: آه، أعرف ذلك. أظن أن عليّ أن لا أزعجها، ولكن الأمر مُقلق بالفعل، ووالدي شديد ال... شديد اللؤم بخصوص هذا الأمر، فهو يهزأ مني دوماً لكوني امرأة «راقية»! ولكني لا أريد حقاً البقاء هكذا دون عمل.

- أعرف ذلك.

- المشكلة أن التدريب على أي مهنة أمر مُكلف دائماً. إنني أتقن الألمانية جيداً الآن ويمكنني أن أستفيد من ذلك بشكل ما، ولكن الذي أظنه حقاً هو أنني أريد أن أكون ممرضة في مستشفى، فأنا أحب مهنة التمريض.

قالت الممرضة هوبكنز دون رومانية: تذكّري أن عليك أن تكوني قوية جداً في هذه الحالة.

- إنني قوية! وأنا أحب التمريض حقاً. لقد كانت خالتي التي عاشت في نيوزيلندا ممرضة، لذلك فإن المهنة تجري في عروقي.

- ماذا عن التدليك؟ إنها مهنة تدرّ ربحاً جيداً.

قالت ماري بارتياب: ولكن التدريب عليها باهظ التكاليف. لقد كنتُ آمل... ولكن هذا جشعٌ شديد مني. لقد فعلتُ الكثير من أجلي حتى الآن.

- أتعنين السيدة ويلمان؟ هذا هراء. أنا أرى أنها مدينة لك

بذلك. لقد وفّرت لك تعليماً رائعاً، ولكنه ليس من النوع الذي يُحقق الكثير. لا أظنك تريدان التدريس؟

- لا أملك من الذكاء ما يكفي له.

- بل لديك منه الكثير! إن أردت نصيحتي يا ماري فما عليك إلا أن تصبري في الوقت الحاضر، فأنا أرى -كما قلت- أن السيدة ويلمان مدينة لك بمساعدتك للبدء في كسب عيشك. ولا أشك في أنها تنوي صنع ذلك، ولكن حقيقة الأمر هي أنها تعلّقت بك ولا تريد أن تفقدك.

قالت ماري وقد شهقت قليلاً: آه! أتظنين حقاً أن الأمر على هذا النحو؟

- ليس لديّ أدنى شك، فهذا هي تلك المسكينة العجوز تجلس مُقعّدة مشلولة نصفياً وليس لديها الكثير ممّا يسليها أو من يسّلونها. إن وجود شابة جميلة نضرة مثلك في المنزل يعني لها الكثير، وإن لك أسلوباً رائعاً مع المرضى.

قالت ماري بهدوء: إن كنتِ تريين ذلك حقاً فهذا يريحني قليلاً. يا للسيدة ويلمان العزيزة! إنني أحبها جداً جداً. لقد كانت في غاية اللطف معي دوماً، ومن شأنني فعل أي شيء من أجلها.

قالت الممرضة هوبكنز ببرود: إن أفضل ما تستطيعين فعله هو البقاء حيث أنت والتوقف عن القلق، ولن يطول انتظارك.

- أتعنين...؟

بدت عيناها واسعتين خائفتين، فيما أومأت ممرضة المقاطعة

برأسها وقالت: لقد صمدت بشكل رائع، ولكن هذا لن يدوم طويلاً. ستأتي سكتة أخرى، ثم الثالثة... أنا أعرف طريقة هذا المرض جيداً. اصبري يا عزيزتي، إنك إن جعلت الأيام الأخيرة للعجوز أيام سعادة وتسلية فسيكون هذا تصرفاً أفضل من كثير غيره.

قالت ماري: أنت في غاية اللطف.

- ها هو أبوك يخرج من باب البيت، ولا أظنه ينوي تمضية اليوم على خير!

كانتا تقتربان من البوابة الحديدية الضخمة، وعلى درجات بيت البواب وقف رجل كهل منحني الظهر ينزل بصعوبة عن الدرجتين. قالت الممرضة هوبكنز بابتهاج: صباح الخير يا سيد جيرارد.

قال إفرام جيرارد باقتضاب نَزَق: آه!

قالت الممرضة: إنه طقس جميل.

قال العجوز جيرارد بغیظ: ربما كان جميلاً بالنسبة لك، ولكنه ليس كذلك بالنسبة لي. إن آلام ظهري تشتد عليّ.

قالت الممرضة هوبكنز بمرح: أحسب أن هذا بسبب موجة الرطوبة التي سادت الأسبوع الماضي، ولكن هذا الطقس الجاف الحار سيزيل آلامك سريعاً.

بدا أن أسلوبها المحترف السريع قد أزعج العجوز، فقال بامتعاض: ممرضات، ممرضات! كلكن سواء، يملوكنّ السرور بمتاعب الآخرين، وما أقل ما تأبهنّ حقيقة! وها هي ماري تتحدث

عن نيتها في أن تصبح ممرضة أيضاً. كنتُ أظنها تريد شيئاً أفضل من ذلك، بما تتكلمه من فرنسية وألمانية وكل الأشياء التي تعلّمتها في مدرستها الكبرى وأسفارها إلى الخارج...

قالت ماري بحدّة: إن التمريض سيكون جيداً تماماً بالنسبة لي.

- نعم، ولكنك تفضلين عدم صنع شيء أبداً، أليس كذلك؟
تبتخرين هنا وهناك بخيلائك وتصنّعك وأساليبك الأرسقراطية المتبذلة. الكسل هو ما تحببته يا فتاتي.

احتجّت ماري وقد اغرورقت عيناها بالدموع: هذا ليس صحيحاً يا أبي، ليس من حقك أن تقول ذلك.

تدخلت الممرضة هوبكنز بأسلوب ثقيل يراد له أن يكون مرحاً:
أنت لست على ما يرام هذا الصباح، أليس كذلك؟ إنك لا تقصد حقاً ما تقوله يا جيرارد. إن ماري فتاة طيبة، وهي ابنة بارة بك.

نظر جيرارد إلى ابنته كمن يكاد يتمنى لها الشر وقال: لم تعد ابنتي هذه الأيام... بفرنسيتها وحديثها الرقيق الممتنع!

ثم استدار وعاد إلى البيت الصغير.

قالت ماري والدموع ما تزال في عينيها: ها أنت ترين مقدار صعوبة الأمر. إنه غير معقول أبداً، إنه لم يحبني حقاً حتى عندما كنت فتاة صغيرة، كانت أمي تدافع عني دوماً.

قالت الممرضة هوبكنز بلطف: هيا، هيا، لا عليك. هذه الأمور تأتينا لتمتحن صبرنا.

ثم هتفت: يا إلهي! عليّ أن أسرع، أمامي جولة واسعة اليوم.
وفيما وقفت ماري جيرارد تراقب الممرضة وهي تبتعد سريعاً
فكرت بكآبة بأن أحداً لا يستطيع مساعدتها حقاً، فقد اكتفت الممرضة
هوبكنز -رغم كل لطفها- بترديد بعض العبارات المكرورة وتقديمها
بأسلوب جديد.

فكرت ماري قائلة لنفسها بجزع: ماذا أفعل؟

* * *

نشكرك على الاهتمام بمنشوراتنا، ونأمل
أن تكون الصفحات التي قرأتها قد وفّرت
لك قراءة ممتعة وعرفتك بالرواية.

يمكنك شراء نسخة ورقية من هذه الرواية
(وسواها من الروايات) من موقعنا مباشرة،
ونرجو عدم التردد بالاتصال بنا لو
احتجت لأي مساعدة.

الأجيال

www.al-ajyal.com